

حنا جريس- عن أوغسطينوس

القديس أوغسطينوس: رحلة الفيلسوف وتأثيره على الفكر الغربي

"لقد أصبحت أنا نفسي مشكلة كبرى لنفسي." [1]

مقدمة:

يحتل القديس أوريليوس أوغسطينوس (354-430م) مكانة فريدة ومرموقة في تاريخ الفكر الإنساني، فهو، دون مبالغة، أحد أبرز العقول التي صاغت ملامح الحضارة الغربية. لم يكن تأثيره مقتصرًا على نطاق اللاهوت المسيحي فحسب، بل امتد ليشمل آفاق الفلسفة والأخلاق والسياسة، تاركًا بصمات لا تُمحى على مسيرة الفكر الغربي. وقد وصفه المؤرخ توماس كاهيل [2] بأنه "أول شخص من العصور الوسطى وآخر شخص من العصر الكلاسيكي" [3]، وهو وصف دقيق يجسد ببراعة الطبيعة الجسرية لفكر أوغسطينوس، الذي استوعب التراث الكلاسيكي وأعاد صياغته في قالب مسيحي مبتكر. يُعد أوغسطينوس من أعظم الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى، ولم يأت بعده من يضاهيه في العمق والتأثير، ربما باستثناء القديس توما الإكويني [4]. إن كتابات أوغسطينوس لم تقتصر على الجوانب اللاهوتية والفلسفية البحتة، بل تتجاوزها لتُعد أيضًا مصدرًا أساسيًا وثريًا للتاريخ الاجتماعي والثقافي لعصره. إن رحلته الفكرية، بما اتسمت به من تحولات عميقة وبحث دؤوب عن الحقيقة قد أثمرت أعمالاً خالدة، لعل من أبرزها في سياقنا في الشرق كتابي "الاعترافات" [5] و"مدينة الله" [6]. أما الأول فيُعتبر عملاً استبطانيًا فريدًا في الأدب القديم، يجمع ببراعة بين السيرة الذاتية والتأمل الفلسفي والمناجاة الروحية؛ بينما يقدم لنا الثاني رؤية بانورامية للتاريخ البشري ودفاعًا متينًا عن المسيحية في مواجهة التحديات الفكرية والسياسية التي عصفت بعصره. أهدف في هذه العجالة إلى تتبع المسيرة الفكرية المعقدة للقديس أوغسطينوس، والغوص في أعماق أعماله الرئيسية، واستكشاف التأثير الواسع الذي أحدثه في تطور الفكر الفلسفي الغربي، معتمداً على منهج نقدي مقارنة لتقديم صورة شاملة ومتعمقة لهذا المفكر

الاستثنائي الذي لا يزال فكره يتردد صداه في ثنايا الفكر الغربي المعاصر.

أولاً: الرحلة الفكرية لأوغسطينوس

لم تكن رحلة أوغسطينوس نحو الإيمان المسيحي والفهم الفلسفي طريقاً ممهّداً، بل كانت مساراً متعرجاً، حافلاً بالبحث القلق، والتجارب الروحية العميقة، والمواجهات الفكرية الحاسمة. لقد شكلت المؤثرات المبكرة في حياته، مروراً بانغماسه في التيارات الفكرية السائدة في عصره، ووصولاً إلى تحوله الديني، مراحل جوهرية في تكوين عقليته التي أثرت بعمق في تاريخ الفلسفة واللاهوت.

1. النشأة الأولى والتكوين:

وُلد أوريليوس أوغسطينوس في الثالث عشر من نوفمبر عام 354 ميلادية في مدينة طاجاست [7]، التي تُعرف اليوم ببلدة "سوق أهراس" في الجزائر. نشأ أوغسطينوس في كنف أسرة تعكس التنوع الديني الذي كان يميز شمال أفريقيا الرومانية آنذاك؛ فوالده كان وثنيًا لم يعتنق المسيحية إلا وهو على فراش الموت، بينما كانت والدته مونيكا [8] مسيحية تقية ذات إيمان عميق، وقد مارست تأثيراً بالغاً ودائماً على تطوره الروحي والديني. تلقى أوغسطينوس مبادئ الديانة المسيحية في سن مبكرة، وهو ما شكل بذرة أولى ستنمو لاحقاً لتصبح حالة راسخة من الإيمان والتأمل اللاهوتي. بدأ مسيرته التعليمية في طاجاست، ثم انتقل إلى مداوروش [9]، وهي مدينة نوميدية قريبة، قبل أن يواصل دراسته العليا في قرطاج [10]، المركز الثقافي النابض بالحياة في شمال أفريقيا آنذاك. في قرطاج، برع أوغسطينوس في دراسة علم البيان، وأظهر تفوقاً ملحوظاً. إلا أن نقطة التحول الفكرية الأولى في حياته تجلّت من خلال قراءته لكتاب "هورتنسيوس" [11] للفيلسوف والخطيب الروماني شيشرون [12]. هذا الكتاب، الذي فُقد معظمه الآن، ألهم في نفس الشاب أوغسطينوس حباً جارفاً للفلسفة وشوقاً عارماً نحو الحكمة الأبديّة. لقد فتح "هورتنسيوس" عينيه على عالم الأفكار والتأملات العقلية، ودفعه إلى البحث عن

الحقيقة بمعزل عن الطموحات الدنيوية. تزامنت هذه الصحوة الفكرية مع فترة من الاضطراب في حياته الشخصية. ففي مقتبل شبابه، عاش أوغسطينوس حياة صاخبة، ودخل في علاقة غير شرعية مع امرأة لم يكشف عن اسمها في "الاعترافات"، وأنجب منها ابنه "أديوداتوس" [13] الذي كان يكن له حبًا عميقًا. هذه التجارب الحياتية، بما فيها من انغماس في الملذات وصراعات داخلية، لم تكن مجرد أحداث عابرة، بل شكلت مادة خصبة لتأملاته اللاحقة حول طبيعة الخطيئة، وضعف الإرادة البشرية، وضرورة النعمة الإلهية للخلاص. إن الصدق المؤلم الذي سيتحدث به لاحقًا عن هذه الفترة في "الاعترافات" يكشف عن عمق الصراع الذي كان يعتمل في نفسه بين تطلعات الروح وإغراءات الجسد.

2. الانغماس في المانوية: البحث عن إجابات لمشكلة الشر في خضم بحثه عن الحقيقة وسعيه لتفسير لغز الشر الذي طالما أرقه، وجد أوغسطينوس الشاب ضالته المؤقتة في الديانة المانوية [14]. انجذب إلى هذا المذهب الفارسي الأصل، الذي أسسه ماني [15] في القرن الثالث الميلادي، وظل من أتباعه لمدة تسع سنوات، تقريبًا بين عامي 373 و 382م. قدمت المانوية لأوغسطينوس إطارًا فكريًا بدا له في مستهل الأمر مقنعًا لتفسير مشكلة الشر، التي استعصت على فهمه في قراءاته الأولية للكتاب المقدس. فالعقيدة المانوية تركز على مبدأ ثنوي صارم، يرى العالم مسرحًا لصراع كوني أبدي بين مبدأ النور (الخير) ومبدأ الظلمة (الشر). وقد وجد أوغسطينوس في هذا التفسير ما يرضي نزعتة العقلانية آنذاك، حيث بدا له أن المانوية تقدم تفسيرًا منطقيًا لوجود الشر والصراع الداخلي الذي كان يعيشه بين تطلعاته الروحية ونزعاته الجسدية. كانت المانوية تدّعي أنها تقدم معرفة علمية بالكون، وتنبؤات فلكية، وهو ما استقطب العقل المتعطش للمعرفة لدى أوغسطينوس. كما أن تأكيدها على أهمية العقل في فهم الدين، وتقديمها لنظام كوني متماسك، بدا له متفوقًا على ما اعتبره بساطة في النصوص المسيحية التي اطلع عليها في تلك الفترة. بالإضافة إلى ذلك، فإن المانوية، بتمييزها الحاد بين الروح (النور) والمادة (الظلمة)، قدمت له تفسيرًا للرزيلة والشهوة التي